في العمق

واقع وراهن الدرس المقارن للأدب

عبد النبي اصطيف

ثمة ما يشبه الإجماع، بين مقارني الشرق والغرب والشمال والجنوب، على معاناة الدرس المقارن للأدب، من أعراض تشي بضعفه في مواجهة تطورات عملية الإنتاج الأدبي، في عصر العولمة الذي يعيشه العالَم منذ عدة عقود. وأول هذه الأعراض؛ هو نزعة (التمركز حول الذات)، التي تُداخِل الفكر النظري الغربي، في تدبُّره لمسائل الدرس المقارن للأدب من جهة، وتهيمن على دراساته التطبيقية، التي تسرف على نفسها في تقويم الدور الغربي، في أية علاقة تقيمها آداب الغرب مع آداب العالم الأخرى، من جهة أخرى.

وثاني هذه الأعراض؛ هو ضيق الأفق المعرفي الذي يهيمن على المنظور المقارني الغربي.. فالمدرسة الفرنسية، على سبيل المثال، قيّدت الدرس المقارن للأدب، بفكرة التأثير المُتبادَل بين الآداب القومية حصراً، دون الالتفات إلى علاقة الأدب بالفنون الجميلة، والمعارف والعلوم، وهو ما حاولت المدرسة الأمريكية استدراكه على يد (هنري رماك)، الذي وسّع دائرة العلاقة التي يقيمها الأدب مع أشكال التعبير، والاعتقادات الأخرى لتشمل الفنون والعلوم الاجتماعية والسياسية، وبعض المعارف، غير أنه لم يلتفت إلى حقيقة أن هذه العلاقة ينبغي أن تنطوي على تفاعل مرتبط عضوياً بحاجات طرفيه من ناحية، والإمكانات المتاحة لأي منهما من ناحية أخرى.

وثالث هذه الأعراض، هو قَصْرها الأدب على شكليه المدوّن والشفهي، وعدم الالتفات إلى أشكال جديدة ظهرت أخيراً، كـ(الأدب الرقمي) على سبيل المثال، أو أدب المهمّشين في المجتمعات الإنسانية، والتي تتخذ من أشكال الوسائط الأخرى، قنوات للتعبير عن معاناتها ومشكلاتها ورؤاها للعوالم الخاصة بها.

وقد دفعت هذه الأعراض الخطيرة الغيورين على مستقبل الدرس المقارن للأدب، إلى البحث عن علاج جذري لها، يتمثّل في تدبُّر أسبابها، والانطلاق بهذا الدرس نحو آفاق مفتوحة على التطور، الذي تشهده أشكال التعبير في عصر العولمة. والمرجو من هذا الانطلاق، أولاً: التحرّر من أسر الهيمنة الغربية، وما تفرضه على دارسي الأدب المقارن، من انحيازٍ مسرفٍ لكل ما هو غربي، واتخاذ كل ما هو سائد في الغرب، مقياساً لكل ما يُنتَج في سائر أنحاء العالم؛ وثانياً: ومن ثمّ النظر إلى أية ظاهرة أدبية من منظور عولمي/ كوكبي، يراها جزءاً من أشكال التعبير الخاص بكوكب الكرة الأرضية كله، دون الاقتصار على منطقة واحدة من العالم، وهو ما حاولته (غاياتري شاكرافورتي سبيفاك) بدعوتها إلى شفع الدرس المقارن للأدب بدراسات المنطقة، ما يتيح للدارس رؤية الغابة والأشجار في آن معاً؛ وما حاوله قبلها إدوارد سعيد، بدعوته إلى (القراءة الطباقية) للأرشيف الإنساني، والإصغاء بما ينبغي من تركيز إلى الأصوات الضعيفة، في دراسة المرء لهذا الأرشيف، وما تحاوله اليوم (راي تشو) الصينية بعنايتها بـ(الفروق الثقافية)، التي تنطوي عليها أداة التعبير، حتى ضمن استعمالات اللغة الواحدة. والمُلاحظ في هذا التحوّل في مسار الدرس المقارن للأدب، من القارّيّة الغربية إلى العولمية، أنه إنما جاء على يد نقاد بارزين وافدين إلى الغرب من الشرق، الذي أُقصِي من التفكير الغربي في الأدب، واستبعِدت آدابه من متن الأدب العالمي، وتم الاكتفاء منها ببعض آثاره التي راقت للقارئ الغربي، وتفاعل معها، مثل: (الشاهنامة، والقرآن الكريم، والتوراة، وألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة)، ما سمح لمقارنيه بإعادة التفكير، ومن ثمّ إعادة النظر في مقولات الغرب في هذا الدرس، ومساءلتها، ونقدها، ونقضها، بالصدور عن متن أدبي كوكبي يضم آداب العالم كلها.

والمفارقة أن هؤلاء الوافدين من الشرق (إدوارد سعيد، وسبيفاك، وتشو)، قد درسوا في جامعات الحواضر الغربية (في برنستون وهارفرد في حالة سعيد، وكورنيل في حالة سبيفاك، وستانفورد في حالة تشو)، وباتوا اليوم من الحجج الثقات في نظرية النقد، والدرس المقارن للأدب، ولم يعد بوسع المتمسكين بالتقاليد الأدبية الغربية تجاهل إسهاماتهم الجذرية، خاصة وأنهم، بكتبهم وأبحاثهم ومقالاتهم المترجمة إلى مختلف اللغات العالمية وغير العالمية، ونشاطاتهم العامة، وتدريسهم في كبريات الجامعات الأمريكية، وبحسهم النقدي الرفيع، قد خلقوا مناخاً جديداً تسوده روح النقد والمساءلة، ومراجعة الذات مما يسّر فُسحاً واسعة، لأصوات الباحثين والنقاد والشباب من تلامذتهم، المنتشرين في مختلف أنحاء العالم، وبث حياة جديدة واعدة في روح الدرس المقارن للأدب، ما تجلّى بكل وضوح في التقرير الأخير للرابطة الأمريكية للأدب المقارن، والذي انطلق المُسهِمون فيه من آفاق، لم تكن تخطر على بال من استحدث هذا الضرب من الدرس الأدبي، في مطلع القرن التاسع عشر. وهذه سُنّة الحياة، والدرس المقارن للأدب جزء منها، وبتحوّله إلى نقد، بعد أن كان بحثاً، غدا من الطبيعي أن يبحث ممارسوه عن الأفضل والأجود والأحسن والأجمل والأرقى، في أشكال التعبير الإنساني وفي دراستها.

السعي للبحث عن الأفضل والأرقى في أشكال التعبير الإنساني والدرس الأدبي